البريد ومسايرته للحالة الاجتماعية

فى العالم عامة ومصر خاصة

تاريخه وتطوره

للأستاذ حسن الحطيم

البريد من أولى النظم التى تساير الشؤون الاجتماعية فى كل بلد وكل عهد وعصر، ومن أكثرها اتصالا بمدنية الشعوب ، فهو الوسيلة الأولى لنقل أوامر الدولة وتعاليم الحكومة وتيسير العلائق بين الجماعات بعضهم ببعض وبين الحكومة والجمهور، والجمهور والحكومة على السواء . بل إن البريد ليعتبر مقياس حضارة الشعب ، فكلما كان منتظما سريعا متعدد الوسائل ومختلفها ، كان ذلك مظهرا لتقدم الشعب وتحضره ، فهو يتعثر ويتقهقر فى العهود المظلمة ويتقدم ويتطور فى عهود الحضارة والعمران .

وهو فى مصر ، كما هو فى غيرها خاضع لهذه العوامل ، ولهو لم يزدهر بحق إلا فى بداية القرن التاسع عشر فى عهد المغفور له محمد على باشا رأس الأسرة المالكة ، وزاد ازدهاره فى عهد عاهل مصر العظيم اسماعيل ، ثم بلغ مبلغا تغبط عليه البلاد فى عهد المغفور له ملك مصر السابق "فؤاد الأول"، وها هو ذا يزداد تقدما فى عهد مليك مصر المحبوب "فاروق الأول" أيد الله ملكه وحفظه حفيظا على مصالح البلاد .

فقد تعددت وسائل البريد ودق نظامه — فمنه ما ينقل بالبواخر وبالسكة الحديد ومنه البريد الجوى ثم البريد المصور، والبريد العادى والبريد المستعجل وكل ذلك دليل على الحالة الاجتماعية التى تسايرها البلاد — بعد أن كانت الرسائل فى العصور القديمة مكونة من أوراق البردى تعقد بالخيوط عقدا محكما ، ثم تختم أطرافها بالطين ، ثم بالشمع لتصونها من عيون الفضوليين وتحافظ على أسرار المتراسلين ، وكان بعض الرسائل مكونا من شريط من الجلد تكتب عليه الرسالة ثم يلف على عصا يحملها المرسل اليه ويقرأ الرسالة على الشريط حتى شاع استعمال الورق فكان العرب أول من استعمل الخطابات فى أغلفتها أى فى ظروفها فى بداية القرن التاسع ثم انتقلت الى أسبانيا فى القرن الثانى عشر، ومنها انتشرت فى الممالك الأوروبية.

وقد كانت مصر كأقدم بلاد العالم من حيث العمران والمدنية ، وأرفاها من الناحية الاجتماعية الى البلاد اتباعا للنظم البريدية ، فقد كان لا بد للملوك الفراعنة من أن يتصلوا بعمالهم فى البلاد ببريد منتظم يحمل إليهم تعاليمهم ويتلقى أنباءهم .

أما بريد الجمهور فقد كان لا يعدو الأغنياء يبعثون برسائلهم مع عبيدهم ، وكان الفقراء يتهزون الفرصة فيرسلون بكتبهم مع هؤلاء العبيد .

وكان البطالسة أول من استحدث بريدا منتظما وتبعهم الرومان ، ثم البيزانطيون الذى استخدموا البريد السريع لنقل الرسائل ، والبطئ لنقل الأشياء ، ثم تدهور الحكم فتدهور نظام البريد حيث استبدلت الخيول بالحمير لعجز الولاة عن الانفاق على خيول البريد .

حتى جاء العصر العربى فنظم البريد وكانت بمصر كجزء من الخلافه العربية الاسلامية سبعة خطوط بريدية من القاهرة الى قوص ومن قوص الى بلاد النوبة ومن قوص الى سواكن ومن القاهرة الى الاسكندرية عن طريق دردان ومن القاهرة الى الاسكندرية عن طريق قليوب ومن القاهرة الى دمياط مارا بسرياقوس ومن دمياط الى غزة .

ولما استقل الولاة المماليك بحكم مصر ألغوا بريد الخلفاء واستبدلوه ببريد كان ينقله السعاة المشاة ثم استخدمت الجمال ثم استحدث استخدام الخيل فى عهد الظاهر بيبرس فى عام ١٢٦٠ ميلادية ، وكان تمت خط بين القاهرة وأسوان على ضفاف النيل وخطان آخران القاهرة وأسوان وبين الاسكندرية ودمياط وخط بين القاهرة ودمشق ممتدا الى حمص وحماه وحلب حتى يصل الى الفرات ، هذا عدا الخطوط المحازية لشاطئ البحر الأبيض والآخذة من دمشق الى بعلبك ومن دمشق الى مكة ، وكان البريديون يحملون شارات خاصة هى لوحة النحاس أو الفضة منقوش على أحد وجهيها " لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ضرب فى مصر المحروسة " وعلى وجهها الآخر " عز لمولانا السلطان الملك " الدنيا والدين ... سلطان الاسلام والمسلمين ... بين مولانا السلطان الشهير ... الملك خلد الله ملكه " .

وكانت هذه اللوحة تربط الى عنق البريدى بكوفية صفراء ولعل هذه أول فترة ميز فيها البريديون فى مصر .

وقد عرفت مصر البريد الجوى فى أوائل القرن الثانى عشر حيث استخدم الحمام الزاجل بنظام دقيق سريع فأنشئت فى عام ١١٤٦ ميلادية فى عهد السلطان نور الدين محطات للحمام الزاجل لنقل رسائل الحكومة من القاهرة الى الاسكندرية والى دمياط والى قوص وأسوان والى دمشق عن طريق غزة وأورشليم ومن دمشق الى برنه على نهر الفرات ومنها الى قيصرية ومن دمشق الى صيدا و بيروت وطرابلس ومن دمشق الى بعلبك ومن غزة الى الكرك على البحر الميت ومن حلب الى الرحبة على نهر الفرات ، وكانت الجياد تنقل الرسائل عن تلك الطرق ذاتها غير أن الحمام كان يقطع الرسائل فى نلث الوقت الذى تقطعه فيه الجياد ، وكان الحمام يغير بخيرة فى كل محطة كما كانت تغير الجياد ، وقد شاع استعمال الحمام المعادى كذلك ، وكانت تكتب الرسالة من صورتين ترسلان مع حمامتين تطلق إحداهما بعد ساعتين من الأخرى حتى اذا ضلت إحداهما وصلت الأخرى .

وجاء عهد محمد على الكبير فعنى بصفة خاصة بنقل رسائل الحكومة فنظم محطات للبريد بين العاصمة وأهم مراكز القطر فكان السعاة المشاة ينقلون الرسائل بين محطة وأخرى بحيث لا تزيد المسافة بين المحطة والتى تليها أكثر من بضع كيلومترات ، ولا تستغرق أكثر من ساعة وكانت تصل الرسالة من القاهرة إلى الاسكندرية فى حوالى ٢٤ ساعة ، وكان يرسل البريد فى مصر الوسطى مرة كل أسبوع ، وفى الصعيد مرة كل شهر ثم امتدت أعمال البريد الى السودان بعد فتحه عام ١٨٣١ فكان وصول البريد من القاهرة الى الخرطوم يستغرق خمسين يوما على ظهور الهجين .

وكان البريد قاصرا على الرسائل الحكومية ثم تعداها إلى رسائل الجمهور فيما بعد ، ثم إلى الخارج حيث كان يتسلمها ربانية السفن أو ترسل عن طريق قناصل الدول أو عن طريق مكاتب البريد الأجنبية التى أنشئ أقدمها بالسويس والاسكندرية عام ١٨٣١ ، أما الرسائل التى كانت تصل إلى مصر من الخارج فكانت ترد ضمن بريد القناصل فى القاهرة والاسكندرية . وقد بدأ القناصل وربانية السفن يظهرون عدم ارتياحهم إلى تلك الطريقة حينما تزايدت الرسائل تبعا لازدياد الجاليات الأجنبية حتى قام فى الاسكندرية أجنبى يدعى كالبوميراتى فأنشأ إدارة بريدية لحسابه لتصدير وتسلم الخطابات المتبادلة بين مصر والبلاد الأجنبية نظير أجر معتدل وخلفه بعد موته أحد أقاربه الذى اشرك معه صديقا له يدعى المسيو موتسى وأطلق على المشروع بعد توسعه إسم البوستة الأوربية وافتتحت مكاتب فى الأقاليم . وفى عام ١٨٥٦ تعاقدت البوستة الأوربية مع الحكومة على نقل ارساليات البريد على الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية وما بينهما . فكان ذلك بمثابة امتياز باحتكار نقل البريد فى الوجه البحرى . وفى عام ١٨٦٢ ألغت الحكومة مكاتبها وأصبح أصحاب البوستة الأوربية مسئولين عن البريد فى البلاد حتى جاء عام ١٨٦٤ فانتقل هذا العمل فى عهد اسماعيل العظيم إلى سلطة الحكومة التى عينت موتسى مديرا للادارة التى أنشئت إذ ذاك للبريد وألحقتها بوزارة الأشغال ، ثم بوزارة المالية سنة ١٨٦٥ ، ثم تابعة لرئاسة مجلس الوزراء تحت إشراف شريف باشا سنة ١٨٦٥ ، ثم لوزارة الحقانية والتجارة سنة ١٨٧٥ ، ثم لوزارة الزراعة والتجارة سنة ١٨٧٦ ، ثم لوزارة المالية سنة ١٨٧٨ ، ثم لوزارة المواصلات سنة ١٩١٩ . حينما استحدثت وزارة المواصلات عندما رأى المغفور له الملك فؤاد ضرورة توحيد أعمال المواصلات تحت وزارة تربط بين مختلف وسائل المواصلات .

أما طوابع البريد فقد عرفت فى فرنسا فى عهد الملك لويس الرابع عشر عام ١٦٥٣ وفى سردينيا عام ١٨١١ صدرت ظروف مدموغة للرسائل وعرفت فى انجلترا عام ١٨٤٠ وعرفت فى البرازيل عام ١٨٤٣ وتبعتها بلجيكا عام ١٨٤٥ والولايات المتحدة عام ١٨٤٦ وروسيا عام ١٨٤٨ وفى مصر عرفت طوابع البريد عام ١٨٦٦ وكانت تزين بمنظر أبى الهول والهرم حتى كان عام ١٩٢٢ . فزينت الطوابع بصورة حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد

الأول وفى عام ١٩٢٦ صدرت طوابع البريد المستعجل والبريد الجوى . وكانت تصدر الطوابع التذكارية للمناسبات الاجتماعية والعمرانية والمعارض والمؤتمرات التى عقدت فى البلاد، وهى بدورها تسجل نهضة البلاد فى عهدها الجديد حيث صدرت مجموعة من الطوابع التذكارية عام ١٩٢٥ بمناسبة عقد المؤتمر الجغرافى الأول بالقاهرة، ثم طوابع تذكارية للعرض الزراعى الصناعى الثانى عشر ومؤتمر الملاحة الدولى وافتتاح مدينة بور فؤاد ومؤتمرات الاحصاء والطب والسكك الحديدية . وصدرت طوابع تذكارية محلاة بصورة حضرة صاحب السمو الملكى وقتئذ عام ١٩٢٩ بمناسبة ذكرى عيد ميلاد سموه فى العشر سنوات من عمره السعيد المديد باذن الله وكان الإقبال على شرائها منقطع النظير فقد بلغ ماطبع منها مائتا ألف طابع ثمن الطابع خمسة مليمات بيعت كلها فى يومين ولما ثمن الطابع فى السوق فى اليوم الثالث ثمانين مليما ، وليس هذا إلا مظهرا من مظاهر تعلق الشعب بمليكه المحبوب الجالس على عرش القلوب ، وصدرت طوابع تذكارية للزفاف الملكى السعيد فى نوفمبر عام ١٩٣٨ وطوابع تذكارية لزفاف صاحبة السمو الأميرة فوزية فى ١٥ مارس عام ١٩٣٩ .

وطوابع للمليك العظيم الراحل المغفور له فؤاد الأول فى أبريل من العام الماضى كانت كلها محل إقبال الجماهير المتعلقة بأهداب البيت المالك الكريم وقبل أن تصدر طوابع البريد فى مصر عام ١٨٦٦ كان يقتضى الأمر أن يقصد الجمهور إلى مكاتب البريد ليسلم رسائله وأجور نقلها إلى تلك المكاتب ، وعند ما بدئ بتعميم الطوابع بدئ باستعمال صناديق البريد وكان ذلك فى القاهرة ، ولما انتشرت مكاتب البريد فى القطر عم استعمال صناديق البريد العادية ثم الميكانيكية بالقاهرة والاسكندرية وبعض المدن الكبرى وأخرى للبريد الجوى والمستعجل ، وقد بلغت الصناديق فى القطر نيفا وخمسة آلاف صندوق ، و بلغت مكاتب البريد فى القطر ٢٥٠ مكتبا تتناول أعمال المراسلات العادية والمؤمنة والمسجلة والطرود العادية والمؤمنة والمحول عليها والتحصيل والتوفير والحوالات الداخلية والخارجية وأذون البريد الداخلية والانجليزية .

وكما عرفت الطوابع فى أول عهد انتقال البريد لمصلحة حكومية عام ١٨٦٦ فى عهد اسماعيل العظيم فقد عرفت الصناديق فى تلك السنة كما أسلفنا كما ميز البريديون بكسائهم فى ذلك العام استكمالا للنظام وكانت الرسائل توزع من نوافذ البريد ثم انتقلت إلى محال الإقامة بالإسكندرية لتناء أجرتهم فى القاهرة و لاسكندرية الى محال الإقامة مقابل أجر يسير خمسة قروش كل شهر وفى عام ١٧٩٠ جعل التوزيع فى القاهرة والاسكندرية وبعض العواصم الكبرى بمحال الإقامة دون أجر حتى بلغ عدد المكاتب ١٣٠ مكتبا يتناول التوزيع فيها ثلاث مرات يوميا ، وفى عام ١٩٣٢ دخل نظام توزيع لرسائل المستعجلة بما فيها الحوالات والطرود بمحال الإقامة و يقوم بنقل البريد الخارجى شركات بحرية فى مواعيد منتظمة متقاربة

وسايرت البلاد العصر فى سرعته فأصبح ينقل البريد بالجو منذ عام ١٩٣١ مقابل رسم إضافى وهذا تاريخ البريد جملة وفى مصر خاصة يدل على أنه يساير الحالة الاجتماعية للبلاد ولعصر من حيث دقة نظامه وسرعة وصوله وضمانه وتعدد مايحتويه من وسائل ووفرة الرسائل نفسها للفرد كل ذلك يدل على الحالة الاجتماعية ويصورها أصدق تصوير ، وها هو يبلغ فى مصر فى العهد الحاضر مبلغا يشار إليه فكانما كانت مصر من أسبق الأمم فى العمران الاجتماعى واستعمال النظام البريدى إذا هى فى مقدمة الدول من حيث النظام البريدى فى العالم .

إننا نرجو لها هذا المكان الممتاز فى سائر النواحى الاجتماعية والعمرانية فى هذا العهد الزاهر عهد صاحب الجلالة الملك المحبوب "فاروق الأول" حفظه الله وأيد ملكه .

حسن الحطيم

سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو .

أحدهما قوى فاجر . والآخر صالح ضعيف : مع أيهما يغزى ؟

فقال : أما الفاجر القوى ، فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه .

وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه ، وضعفه على المسلمين .

يغزى مع القوى الفاجر !

« من كتاب السياسة الأهلية لابن تيمية »